أبو بكر الصديق رضي الله عنه

١١ - ١٣هـ ٦٣٢ - ٦٣٤م

هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر التيممى، يلتقى نسبه بالنبى ﷺ فى مرة بن كعب وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة.

وإليك كشفًا يبين نسب الخلفاء الراشدين الأربعة واتصالهم بنسب النبى ﷺ.

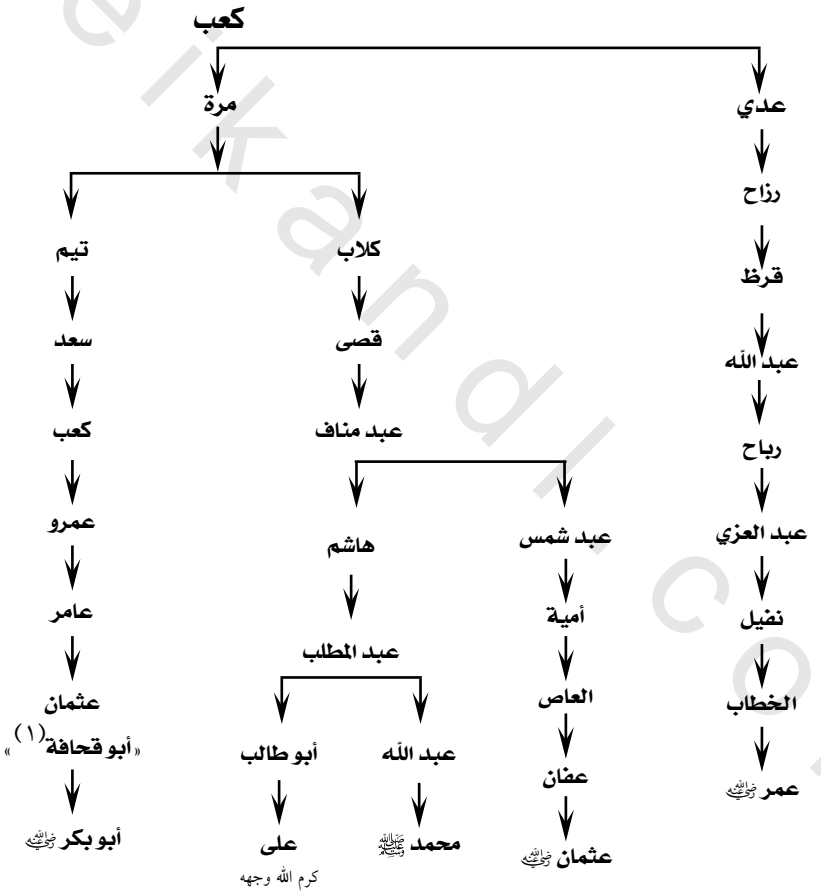

(١) لم تذكر لنا الروايات التاريخية سبب هذه الكنية وإن كان بعض المتأخرين استنبط أنه كنى بها لأنه بكر بالإسلام قبل غيره.

ولد بعد ميلاد النبى عليه الصلاة والسلام بسنتين، وربما تكون بيئته قد أتاحت له أن ينشأ كما ينشأ أعاظم الرجال وأماثلهم، فبنوتيم من أكرم بطون قريش وأشرفهم، كانت إليهم من مفاخر قريش فى الجاهلية الأشناق وهى الديات والمغارم وقد آلت هذه المفخرة قبل الإسلام إلى أبى بكر، فكان إذا احتمل شيئا أمضت قريش حمالته وقامت معه وإن احتملها غيره خذلوه[1].

كان ﷺ ذا يسار يحمل الكَلَّ ويكسب المعدوم، وكان عالما بأنساب العرب وبخاصة قريشا خبيرًا بالمجتمع الذى يعيش فيه سهلا لين العريكة رضى الخلق لا يقلبه الهوى، قريبًا إلى قلوب العامة والخاصة[2] وهو إلى جانب ذلك قوى الإرادة ماضى العزيمة كما يتضح من مواقفه المشهورة إزاء الأحداث الجسام التى وقعت فى عهده، كما أن حسن رأيه ورجاحة عقله وعدم ميله مع الهوى جعلته لا يشارك قومه فى كثير من عاداتهم ومعتقداتهم.

ومن أحسن التعريف به ما قاله ابن هشام فى سيرته: كان أبو بكر رجلا مألفا لقومه محبا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته.

وكان لهذه الصفات الجليلة التى تميز بها ﷺ أثر أى أثر فى إسلام كثير من كبار الصحابة فقد أسلم بدعوته عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد وغيرهم من السابقين الأولين إلى الإسلام.

ولعل فى هدوئه ورضا خلقه، ورغبته عما كان فى قريش من عادات ما ألف بينه وبين النبى عليه الصلاة والسلام من قبل الإسلام، وربط بين قلبيهما برباط الألفة والمحبة، فصحبه قبل البعثة ثم كان أول رجل آمن

---

(١) ذكر المؤرخون أن من انتهى إليه الشرف من قريش فى الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وذكروا أن منهم بنى تيم وكانت إليهم الأشناق -راجع تفصيل ذلك فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٣/ ٧٠٤) المخطوط بمكتبة الأزهر، العقد الفريد ٢/ ٣١، كتابنا سيف الله خالد بن الوليد.

(٢) لعل فى كل هذه الأمور إشارة لا تخفى لأولويته بالخلافة.

برسالته وسارع إلى تصديقه حتى لقب بالصديق وقال فيه النبى ﷺ: ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر.

ولما هاجر النبى عليه السلام اختاره لصحبته فكان «ثانى اثنين إذ هما فى الغار » وكان له وزير صدق ورفيقا فى كل مشاهده وصاحب رايته يوم تابوك، وجعله أميرًا على الحج وخليفته على الصلاة وهى أفضل دين المسلمين. هذه بعض شمائل الصديق رضي الله عنه التى من أجلها اختاره المسلمون خليفة عن نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

انتخابه للخلافة:

على أثر وفاة النبى ﷺ استولى الذهول على المسلمين فقد كانوا يستبعدون وفاة النبى ﷺ حتى إن عمر صار - من فرط الذهول - يتوعد من يقول بموت النبى عليه الصلاة والسلام وتوهم البعض أنه فى غيبوبة. ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه حاضرًا وقت الوفاة، فلما علم بموت النبى عليه الصلاة والسلام جاء مسرعا فدخل عليه فألفاه مسجى فى ناحية من البيت فكشف عن وجهه الشريف وبكى وجعل يقبله ويقول: « ما أطيبك حيا وما أطيبك ميتًا» ثم خرج إلى الناس فقال: «أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤] فاستيقن المسلمون موت النبى فانفجروا بالبكاء هلعا وحزنا على نبيهم الكريم الذى فقدوه، ووجموا حتى لا يدرون ما يصنعون، وخر عمر- وهو القوى- إلى الأرض وما تحمله رجلاه.

فى هذه اللحظات الحزينة المذهلة! وبينما المسلمون يقومون بتجهيز النبى ﷺ إذ بلغ عمر بن الخطاب أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة عن رسول الله ﷺ فأعلم أبا بكر بذلك فأسرعا إلى مكان

الاجتماع لتدارك الأمر قبل فواته وانضم إليهما فى الطريق أبو عبيدة ابن الجراح وفاجأ ثلاثتهم المجتمعين فى السقيفة.

كان الأنصار أوسهم وخزرجهم قد اتجهت أنظارهم إلى سعد بن عبادة الخزرجى لشرفه وتقديمه، ولأنه أحد النقباء ليلة العقبة وقد خطب فيهم مبينا ماللأنصار من الفضل وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الأمر أحد فقالوا له: «أصبت ووفقت».

ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم: فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا: نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟ فقال له آخر: نقول: منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعهما: هذا أول الوهن.

دخل أبو بكر وصاحباه السقيفة على الأنصار المجتمعين وهمَّ عمر أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه، فقال له أبو بكر: «رويدًا حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت» وتكلم هو -وكان رجلا وقورًا له أناة- فأثنى على المهاجرين وبين مالهم من فضل السبق إلى الإسلام وما احتملوه فى سبيل دينهم، ثم عطف على الأنصار فأشاد بهم ولم يترك شيئًا مما لهم من المآثر إلاعرض له وذكرهم بقول النبى ﷺ: «الأئمة من قريش» وبين لهم أن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى الأمور دونكم فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به. ثم دار حوار شديد بين عمر والخباب بن المنذر الخزرجى فاتجه أبو عبيدة إلى الأنصار وقال: «يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغيَّر» فقام بشير بن سعد الخزرجى والد النعمان بن بشير فقال: «يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا عرضا فإن الله ولى المنة علينا بذلك إلا أن محمدًا من قريش وقومه أحق به وأولى وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا

الأمـر أبدًا، فاتقـوا الله ولا تخالفـوهم ولا تنازعـوهم» فهـدأ ذلك من ثائرة كثير من النفوس فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبو عبـيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا: لا والله، لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ همـا فى الغـار وخليفـة رسـول الله على الصلاة، والـصلاة أفـضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك أو يتولى هذا عـليك فبادر عمر فمد يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فقال الحباب لبشير: عقفت؟ أنفست على ابن عـمك الإمارة؟ فقـال: لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قـوما حـقًّا جعله الله لهم، وبـايعته الأوس مـخافة أن يصـير الأمر إلى الخـزرج، وأقبل الناس على أبى بكر يبايعونه حتى كـادوا يطوؤن سعد بن عبادة وهو مـريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن بيعته إلا على بن أبى طالب ومن معه ممن كان مشغولا بجهاز رسول الله ﷺ.

وبهذا تمت بيعة أبى بكر لأن جمهور المسلمين قـد بايعه وفى مقدمتهم كبار الصحابة.

وبيعة السقيفة هذه تعرف بالبيعـة الخاصة فقد كانت مقصورة على من كان حاضرًا فى السقيفة أما البيعة العامة فكانت فى اليوم التالى بالمسجد النبوى.

شبهة مغرض:

يزعم بعض المسـتشرقين ممن فى قلوبهم مـرض بكراهة الإسلام من أمـثال «لامنس وبروكلمان» أن بيعة أبى بكر ليست كما تذكرها الروايات العربية وإنما كـانت نتيجـة لمؤامـرة سياسيـة دبرها أبو بكر بالاتفاق مع عمر وأبى عبيدة ابن الجراح ويستدلون على ذلك بأمور منها:

١- حضور هؤلاء الثلاثة اجتماع السقيفة فى وقت واحد.

٢- انفرادهم دون بقية المهاجرين بحضور هذا الاجتماع.

٣- أن عمر كان أول من بايع أبا بكر.

٤- أن أبا بكر بدوره لما شعر بدنو أجله نفذ الاتفاق فعهد بالخلافة إلى عمر.

٥- أن عمر لما قتل قال: لو كان أبو عبيدة حيا لعهدت بها إليه فكأن عمر يتمنى حياة أبى عبيدة لتنفيذ الاتفاق الذى تم بينهم قبل ذهابهم إلى السقيفة.

ونحن نرد هؤلاء المغرضين إلى الصواب إن طلبوه وإلى الحق إن أرادوه فنقول:

١- إن حضور هؤلاء الثلاثة دون غيرهم اجتماع السقيفة فى وقت واحد لم يكن عن تدبير فليس واحد منهم كان يتوقع مثل هذا الاجتماع المفاجئ حتى يقوم ثلاثتهم بتدبير خطة مضادة تفسد على المجتمعين أمرهم وتجعل الأمر للمتآمرين الثلاثة حسبما اتفقوا عليه.

٢- إن أبا بكر كان وقت وفاة النبى ﷺ فى بيته بالسنخ ثم لما حضر كان مشغولا مع آل النبى ﷺ بتجهيزه.

٣- إن عمر كان مذهولا مشدوها حتى إنه سقط على الأرض من فرط الذهول.

٤- إن أبا عبيدة لم يكن مع أبى بكر وعمر حينما ذهبا إلى الاجتماع وإنما التقى بهما فى الطريق فاصطحباه معهما فكيف تمت المؤامرة بين الثلاثة فى مثل هذه الظروف المذهلة الحزينة والمفاجئة فى الوقت نفسه والتى كان التأخر لحظة عن الذهاب إلى الاجتماع فيها قد يذهب بالفائدة المرجوة ويؤدى إلى فتنة بين المسلمين المهاجرين منهم والأنصار لا يعلم مداها إلا الله تعالى.

٥- إن هؤلاء الثلاثة ذاهبون إلى اجتماع لا يعرفون مداه ولا ما عسى أن يكون من أمره فأية مؤمراة تصدر عن عاقل على أمر مجهول؟! ألم يكن من المحتمل أن يذهبوا فيجدوا المجتمعين قد بتوا فى الأمر؟ إنها إذن مخاطرة وليست مؤامرة.

٦- إن كلام ثلاثتهم كان محوره أن الخلافة فى قريش وبعبارة أخرى للمهاجرين مطلقا لا لأبى بكر ولا لأحد من صاحبيه، أليس من المحتمل أن يلحق بهم بعض المهاجرين ممن هو فى منزلتهم فينتخبه الناس؟ فأية مؤامرة هذه؟!

٧- لما مال المجتمعون نحو رأى أبى بكر من أن الخلافة فى قريش أخذ بيد كل من عمر وأبى عبيدة وقال: «هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوه[١]، ألم يكن من المحتمل أن ينتخب الناس أحد الرجلين فكانت تفشل المؤامرة فأى ضمان أو شبه ضمان لأبى بكر؟!

٨- إن قبول أبى بكر لها كانت تمليه الضرورة ولو لم يقبل لما كان أحد يستطيع أن يقدر ما عساه أن يكون من أمر المسلمين ومن ثَمَّ قال عمر: إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها «أى كانت عفوًا وعلى غير استعداد وبلا تدبير سابق».

٩- إن قولة عمر هذه صريحة كل الصراحة فى أن بيعة أبى بكر كانت توفيقًا من الله للمسلمين ولم تكن تدبيرًا من أحد.

١٠- إن تهيئة عمر لكلام أراد أن يبدأ به الحديث مع الأنصار وطلب أبى بكر منه أن يتمهل ريثما يقول هو ما فى نفسه يدل على أنه ليست هناك خطة مرسومة.

١١- إن مبادرة عمر إلى بيعة أبى بكر كانت تمليها مصلحة المسلمين ويحتمها اتجاه الاجتماع فقد جاءت لحظة حانت فيها الفرصة لحسم الموقف وتطلبت البت السريع حتى لا يُنقض على الناس غزلهم، ومن أولى من عمر - القوى فى الحق- بحسم مثل هذا الموقف فيكون أول من يبايع؟

١٢- إن عهد أبى بكر لعمر كان بعد أن استشار كبار الصحابة وخاصة من كان يظن أنه أهل للخلافة وقد أجمع الكل على تصويب رأى أبى بكر فى عهده لعمر، لما كان يتحلى به من صفات يعرفها كل المسلمين والتى لا يتصف ببعضها كثير من الناس.

١٣- إن تمنى عمر أن يكون أبو عبيدة حيًّا فيعهد إليه بالخلافة لم يكن تمنيا لأبى عبيدة خاصة، وإنما كان له ولمن كان مثله رضًا من المسلمين وأهلا

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤٦.

لتولى أمورهم، فقد تمنى أن يكون خالد بن الوليد حيًّا فيعهد إليه بالخلافة وقد كانت بينهما نفرة، وتمنى أن يكون صهيب حيًّا فيعهد إليه بالخلافة وليس صهيب بقرشى ولا عربى الأصل.

١٤- إن النبى ﷺ وإن لم يعين أحدًا للخلافة عنه لكنه أشار إشارة -لا تخفى- إلى أبى بكر: فقد كان صاحب رايته يوم تبوك، وأمّره على الحج فى السنة التاسعة للهجرة، وجعله خليفة فى الصلاة. والصلاة أفضل دين المسلمين.

٥- وأخيرًا كانت حجج أبى بكر على الأنصار بينة قاطعة جعلتهم يذعنون راضين.

وبعد: فإنا نسأل هؤلاء المغرضين لِمَ جعلوا أبا بكر هو الأول دون أحد صاحبيه؟ فإن قالوا: إن أبا بكر كان أفضل الثلاثة فى نظر المسلمين فإذا قدم كان ذلك أدعى إلى الاستجابة، قلنا لهم: نعم وقد سرتم معنا فى الطريق المستقيم.

كل هذا وغيره مما لا يتسع له المقام، يجب أن ينتبه له هؤلاء المغرضون فيزيلوا الغشاوة التى أعمتهم وما ران على قلوبهم من كراهة للإسلام حتى يروا الحق حقًّا إن كانوا منصفين. ولا نظنهم كذلك.

منهجه فى الحكم:

بعد أن تمت بيعته رضي الله عنه أعلن منهجه فى الحكم وأوضح سياسته التى اعتزم أن يسير عليها بتلك الخطبة العظيمة الجامعة التى قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: «أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله تعالى بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

قام أبو بكر فى مدة خلافته القصيرة بأمور جسام تدل على قوة إرادته ومضاء عزيمته وثقته بربه، وهذه الأمور هى:

١- إنفاذ بعث أسامة.

٢- مجاهدته المرتدين من العرب.

٣- حمله بالعرب على دولتى الفرس والروم.

٤- جمعه القرآن الكريم.

إنفاذ بعث أسامة بن زيد:

كان النبى عليه الصلاة والسلام قد أعد بعثا قبيل مرضه ليسيره إلى مشارف الشام لإرهاب العرب والروم، وللقصاص لزيد بن حارثة وصحبه الذين قتلوا فى (مؤتة) وقد جعل إمرة هذا الجيش لأسامة بن زيد وهو إذ ذاك شاب حدث[1] وفى الجيش أبو بكر وعمر وكثير من جلَّة الصحابة وذوى السن منهم. وبينما الجيش يتأهب للمسير مرض رسول الله ﷺ فتوقف خارج المدينة حتى كانت الوفاة. ولما توفى النبى ﷺ وبويع أبو بكر بالخلافة كان أول ما فعل هو إنفاذ هذا البعث على الرغم من الأخبار المثبطة من ارتداد عامة العرب وحرج موقف المسلمين بالحجاز فخاطبه كبار الصحابة فى أن يؤجل بعث أسامة ليكون عدة للمسلمين فأبى وصمم على إنفاذ البعث مهما كان الأمر وقال: «لو تخطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ولا أرد قضاء قضى به رسول الله».

ثم كلم فى أن يستبدل بأسامة رجلا أسن منه يقود الجيش فغضب غضبًا شديدًا وقال: يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر؟! واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الأنصار وأخذ بلحيته وقال: عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه!!

ولما تأهب الجيش للسير شيعه أبو بكر وأوصاه بهذه الوصية التى يجب أن

(١) كان له يومئذ ثمانى عشرة سنة - التنبيه والإشراف ص٢٤١.

يهتدى بـها قادة الجيوش والتى يـقول فيها: أيهـا الناس قفوا أوصيكـم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخًا كبيـراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مـثمرة ولا تذبحوا شـاة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمـرون بأقوام قد فرغوا أنفسـهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسـهم له، وسوف تقدمون على قـوم يأتونكم بآنية فـيهـا ألوان الطعام فـإذا أكلتم منها شـيئًا بـعد شىء فاذكـروا اسم الله عليه، وتلقون أقـواما قد فصـحوا أوساط رءوسـهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله».

شيع أبو بكر جيش أسامة وهو ماش وأسامة راكب فقال أسامة: «يا خليفة رسـول الله، والله لتـركـبن أو لأنزلـن فقـال أبو بكر: والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما علىّ أن أغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة»؟!

ولما هم بالرجوع قال لأسامة مـتلطفا فى خطابه: إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل. فأذن أسامة لعمر بالمقام.

سار أسامة بجـيشه إلى جنوبى فلسطين وغزا بلاد قضـاعة وأخافهم وغنم منهم. وقد استغرقت حملته هذه نحواً من شهرين.

إن هذا البـعث قـد أحـاطت به أمـور تلـفـت نظـر سـواس الأمم وقـادة الجيوش، منها:

١- أن عمر كـان فى البعث، ووجوده فى المدينة بجوار الخليفـة أمر ضرورى فلم يشأ أبو بكر أن يـستبد على أسـامة بإبقائـه بل قال له فى تلطف! إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل.

ولعمرى إن هذا الطلب من الخليفة والتلطف فيـه لهو تربية عالية لاحترام ذى السلطان فى سلطانه، وإلى جـانب ذلك فإن أبا بكر يعرف أن أسـامة مولًّى من سلطان أعلى من سلطانه، فلا حق له فى أن يفتات عليه.

٢- ولما شيع الجيش شيعه وهو ماش وأسامة راكب فأقسم أسامة على الخليفة ليركبن أو لينزلن هو، فلم يقبل الخليفة وقال: وما على أن أغبِّر قدمى فى سبيل الله ساعة؟!

وفى الحق ليس هناك أدب فوق أدب أسامة، وليس هناك تكريم لذى سلطان أسمى من تكريم أبى بكر لأسامة، اللهم إنه هدى الإسلام.

٣- أن أبا بكر لم يتردد فى إنفاذ البعث ولم يقبل أن يؤجله أو يستبدل بأسامة رجلا آخر أسن منه، ولو فعل لكان قد سن للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام أمرًا حتما، وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بإنفاذ بعث أسامة[١].

٤- إن إنفاذ البعث -كما يقول ابن الأثير- «أعظم الأمور نفعًا للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوه لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه»[٢].

●●●

(١) عن عروة قال: جعل رسول الله ﷺ يقول فى مرضة: أنفذوا جيش أسامة، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٥٠.

(٢) قال السيوطى ص٥٠ توجه أسامة فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: «لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم».

obeikandl.com